مصر قبل التاريخ

عقد الاستاذ فندرس بيتري الاثري المشهور فصلاً مسهباً في المصريين القدماء نقتطف منهُ هنا ما خصَّ مصر في عصر مدنيتها قبل عصر التاريخ . ولا يخفى ما في هذا البحث من وعورة المسالك اذ لم يخلّف اهل تلك العصور كتابات يهتدي بهِ المؤرخ وجلّ ما هنالك آثار قليلة جداً ينقب عنها العلماء ويستدلون منها على احوال الناس في تلك العصور استدلالاً

قام في مصر نوعان من المدنية قبل التاريخ انواحد تلو الآخر . وقياساً على ما نعرف من الزمن الذي تستغرقهُ المدنية لقيامها وانحائها لا بد من ان تكون هاتان المدنيتان استغرقتا نحواً من الفين وخمسمائة سنة . وعليهِ فالمدنية الاولى بدأت منذ نحو عشرة آلاف سنة

ولنا دليل آخر على صحة هذا التاريخ في طمي النيل . فمتوسط سمك هذا الطمي نحو اربعين قدماً وقد يزيد على ذلك او ينقص عنهُ في بعض الامكنة . ومتوسط ما يرسب منهُ كل مئة سنة خمس بوصات . وعليهِ فالطمي بدأ يرسب من النيل على اراضي مصر منذ نحو عشرة آلاف سنة . ولم تكن الاراضي صالحة للزراعة قبل ذلك فلما تغيرت الاحوال وصار النيل يحمل الخصب الى مصر في طميهِ مرع اليها الناس من البلدان المجاورة التي اكثرها قاحل واخذوا يفلحون الارض ويزرعونها . وقد خلفوا شيئاً من الآثار في مقابرهم وكثرة هذه المقابر وكثرة القبور فيها يبعثان على الظن ان عدد الناس لمصر سبقت عهد التاريخ باكثر من ٣٥٠٠ سنة اي باكثر مما قدَّرناهُ كما تقدم

المدنية الاولى * بدأت منذ عشرة آلاف سنة وانتهت منذ نحو تسعة آلاف سنة

ولعلَّ المصريين في ذلك العهد لم يفرقوا كثيراً عما هم عليهِ سكان جزيرة نيوزيلند الاصليون في امور معيشتهم والادوات التي استخدموها . فكانوا يصنعون القوارب ويصيدون السمك بالحراب او بالشباك والسنانير وتأنقوا في صنع الثلاثيت فجعلوا رؤوسها من الحجر وزيَّنوا آنية الخزف بنقوش على اشكال هندسية . وكانوا يستعملون الامشاط ويصنعون تماثيل صغيرة يحفظونها ملفوفة بالاقمشة . ونحتوا اشكال الحيوانات من الحجر فبدأوا بنحتها ابتداء يدل على براعتهم ولكنهم وقفوا عند الحد الذي ابتدأوا فيهِ ولم يتقدموا في هذه الصناعة

واهم مصنوعاتهم لذلك العهد آنية الفخار التي كانوا يصنعونها بغير الدولاب المعروف بدولاب الخزاف . فكانوا يبدأون بعمل الاناء من كعبهِ ثم يرفعونهُ شيئاً فشيئاً

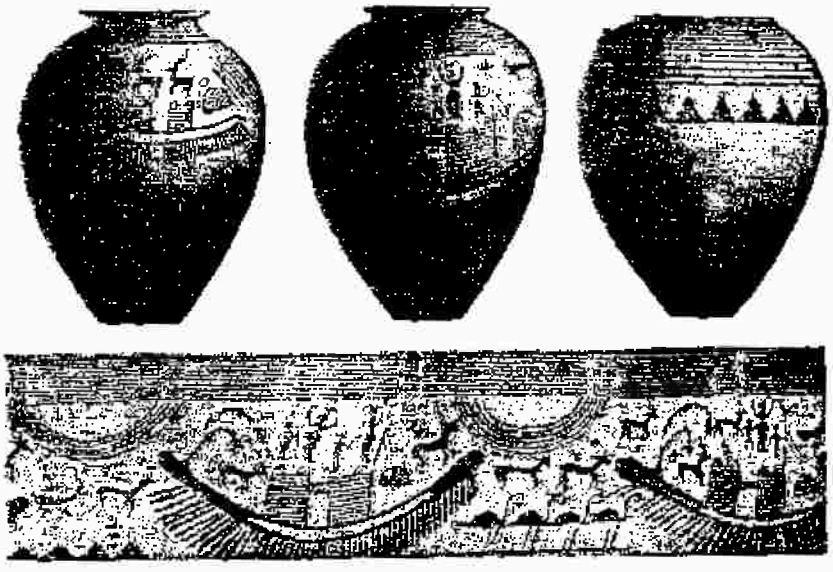

آنية خزفية وتحتها رسم الصور التي عليها

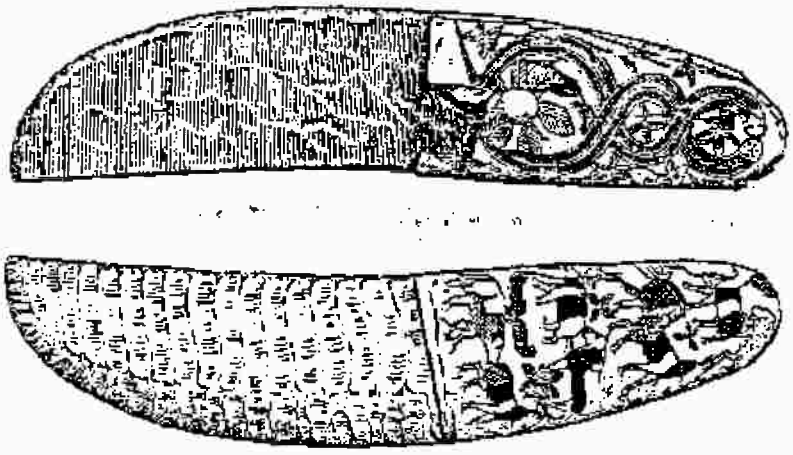

سكينان من الصوان ومقبضاهما من الذهب

المقتطف صفحة ٣٤٤ مجلد ٤٤

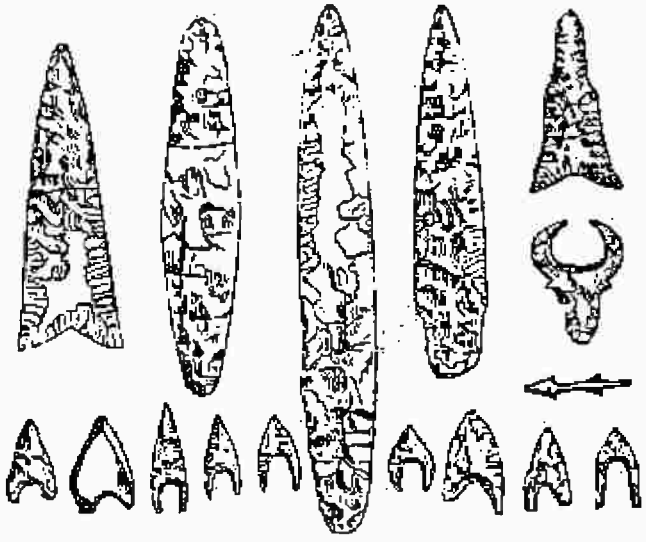

ادوات الظران رؤوس حراب وسهام

قبر قديم وفيه آنية خزفية

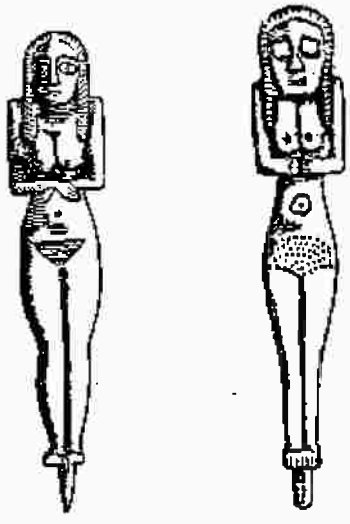

تمثالا امرأتين مصنوعان من العاج

ويصقلون الطين بخشبة من الداخل ويسوّونهُ بايديهم من الخارج . والآنية الباقية من ذلك العهد تدل على براعتهم وقد تأنقوا في صنعها فكانوا يجعلون بعضها بيضي الشكل او ذا زوايا او بهيئة السمك ولم يصعب عليهم ذلك لانهم لم يستعينوا بالدولاب كما تقدم . وكانوا يطلون آنيتهم من الخارج بتراب الحديد الاحمر الذي يسود حينما يشوى

اما نقوش هذه الآنية فخطوط متقاطعة من الدلغان الابيض يتكون منها اشكال هندسية . ولا تزال بعض القبائل المتوطنة البلاد الجبلية في جنوب الجزائر تزين خزفها بخطوط مثل هذه وذلك دليل على انهُ كان في العصور الخالية صلة بين مدنية مصر ومدنية الجزائر وليبية و يقوّي هذا الدليل اتصال البلادين الجغرافي

الا أن الصناعة التي اتقنها المصريون في ذلك العهد وفاقوا بها غيرهم في صنع الادوات الصوانية و يبلغ طول المدى الكبيرة التي كانوا يصنعونها من الصوان خمس عشرة بوصة ولا يزيد سمكها على ربع بوصة . وهي ذات حدين مسنّنة تسنيناً دقيقاً . وكان عندهم حراب يصيدون النزلان بها لزجها شعبتان يرمونها على توائم الغزال حتى يسهل عليهم ادراكهُ . وكانوا يربطونها بحبل طويل يجذبونها بهِ قبل ان تصل الى الارض لئلاَّ تكسر

وقد عرف المصريون الاقدمون النحاس من عهد قديم جدًّا . واتخذوا منهُ الدبابيس لمَّا كان لباسهم لا يزيد على جلد يلتونهُ على المنكبين يصلون طرفيهِ بدبوس من النحاس . ثم صنعوا منهُ حرابًا على شكل الحراب التي كانوا يصنعونها من العظم ليصيدوا بها السمك

ولم تكن حلاهم في ذلك العصر سوى خرز يصنعونهُ من الطين الاَّ انهم كانوا يصفّون شعورهم و يشكون فيها امشاطًا من العظم لكي تبقى على الهيئة التي يريدونها . وامشاطهم طويلة الاسنان وكانوا يحنون اعلاها حتى يصير كهيئة حيوان او طائر . وقد بطل استعمالها في الطور الثاني من المدنية المصرية ولم يبقَ منها الاَّ القليل وصاروا يصنعونها كهيئة رأس الانسان وصدره . وفي اوائل هذا العصر ايضًا لبسوا النعال التي تشد بالسيور

اما النقوش البيضاء على الآنية التي تقدم ذكرها فكانت في اول الامر على هيئة سل محبوك من البردان ثم تأنقوا فيها ولكنها ما لبثت ان انحطت صناعتها فامست خطوطًا لا رونق لها ولا طلاوة . ثم عُدل عنها بتةً وبتيت صناعة الخزف آخذة بالانحطاط الى ان انتعشت بابتداء المدنية الثانية

المدنية الثانية * بدأت منذ نحو من ٩٠٠٠ سنة وانتهت منذ نحو من ٧٨٠٠ سنة

وانتعشت الصناعات كلها حينئذٍ بدخول مدنية جديدة يرجح انها اتت مصر من الشرق

خلافاً للمدنية الاولى التي تشابهُ مدنية ليبية والتي لا يزال شيء منها في تونس والجزائر حتى هذا العصر كما قدمنا . وفي هذا العصر جيء باللازورد من بلاد النجم وبالفضة من بر الاناضول وصار المصريون يلفون رؤوسهم بقناع كما يفعل البدو الآن

وكانوا يصنعون التواريز من الصخر وما يصنع منها من الخزف يجعل على هيئة هذه . ولا يظهر اثر للمدنية الليبية في هذا العصر ومن ذلك يرجح ان هذه المدنية دخلت مصر مع قبائل رحلت اليها من جهة الشرق وهذه القبائل سامية على ارجح

ولعلَّ مدنية اهل ملقا كما في ليومنا هذا اشبه شيء بمدنية مصر لذلك العهد . فهي تشبهها بكثرة سلطاناتها المستقلة وتقدم بعض الفنون واتساع نطاق التجارة وعدم اتخاذ التماثيل الحجرية والاعتناء بالآداب المعنوية . وليس في مدنيات الامم الغابرة اقرب من مدنية الغاليين (اهل غاليا وهي فرنسا) الى هذه المدنية المصرية

وقد كثر في ذلك العصر استعمال السفن . ويستدلُّ من الصور التي على بعض القبور ان طول تلك السفن كان يبلغ ستين قدماً . وفي النقوش التي على الآنية يظهر للسفينة خمسون او ستون مجذافاً في كل من جانبيها وذلك يقتضي ان يكون طولها اكثر من مئة قدم . ويستدل على كبر هذه السفن ايضاً من ان لكل منها ثلاث دفات لادارتها . ولم يكن في اكبر السفن الحربية من سفن البنادقة في القرون الوسطى اكثر من اثني عشر مجذافاً على كل جانب . وكانوا يحملون في كل سفينة قمرتين يصل بينهما جسر ويشحنون البضائع بتنضيدها بعضها فوق بعض ملاصقة لجوانب هاتين القمرتين ويقيمون في مقدم السفينة عموداً يرفعون عليه شعار المدينة التي منها السفينة . وبعض اشعارهم مأخوذ من المميزات الجغرافية كصور الاكام او اغصان الاشجار وبعضها صور معبودات او علامات اخرى من علامات الشرف مثل صورة الحربة التي يصاد بها السمك ويظهر ان الحربة كانت سمة من سمات الشرف عندهم . وفي مؤخر السفينة دفة ذات صفحة كبيرة ولبعض السفن دفتان او ثلاث . وفي المقدم ايضاً تعد للربان الذي يراقب حالة البحر والجهات التي تسير فيها السفينة . هذه هي السفن التي كانت تحمل متاجر المصريين الى البلدان الاخرى وتعود الى مصر بالسنباذج والكهرباء من ازمير والزيت والمقرة من كريت والخشب الفاخر من شمال سورية

ويدلُّ ما بين قبور هذا العهد من التفاوت في مظاهر الغنى ان الثروة كانت كثيرة اذ ذاك حتى يستطيع البعض ادخارها . وقد كان في امكان بعضهم ان يقوموا بنفقات الصنَّاع مدات طويلة ليبنوا لهم آية من الحجر الاصم . ووجدت صور بعض الملوك الذين قاموا في

اواخر هذا العصر وجدول باسماء البعض من ملوك الوجه البحري الذين حكموا قبل عهد الدولة الاولى

اما الصناعة التي برع فيها المصريون في هذا العصر حتى فاقوا سواهم فهي عمل المدى من الصوان . وكانوا يفضّلون من هذه المدى ما كان منها مسلّمًا مثرجًا . فكانوا يعملون المدية اولاً ثم يعمدون الى تصليبها بدقة قد عجز عنها ابرع الصناع اليوم

ولم يقتصر تفوقهم على إحكام العمل بل امتازوا ايضًا بجلدهم على نحت الآنية من المعدن الاصم وصقلها فجاءت خالية من العيب . فانهم صنعوها من المرمر والصوان وكانوا يصقلونها محكًا بالسباذج . وقد وجد اناء ومطار مصنوعان من السباذج نفسه

واكثر المصريون في ذلك العصر من استعمال المعادن فصنعوا من النحاس آلات للنجارة وقد عثر على خنجر من ذلك العصر متقن الصنع . وبدأوا باستعمال الفضة في اواخر العصر الاول ثم استعملوا الذهب ثم الرصاص . اما الحديد فلم يعثر لهم على ادوات منهُ الاَّ بعض خرزات نظمت عقوداً مع خرز الذهب . ومن ذلك يظهر ان الحديد كان عزيزاً جدًّا في ذلك العصر حتى انهُ كان يحلّى بهِ مع الذهب

واستعملوا في ذلك العصر التعاويذ صنعوها على شكل الحيوانات التي كان المصريون الذين اتوا بعدهم يقدّسونها . وتكثر التعاويذ التي على هيئة رأس الكبش ويتلوها في الكثرة التعاويذ التي مثل رأس الثور او مثل الباشق او العقرب او الذبان او الضفادع . وكانوا يعتقدون ان النفس لا تفارق الجسد بعد الموت يدل على ذلك التحف والادوات التي كانوا يضعونها في القبور مع الموتى واكثرها مما يفتقر الانسان اليهِ في معيشتهِ . ولم تكن العقود الثمينة من الذهب وغيره توضع مع الميت لمجرد اكرامهِ فقد كانوا يضعون معهُ ايضاً آنية خزفية وحرابًا وطعامًا مما يدلُّ على انهم كانوا يعتقدون انهُ يحيا حياة اخرى . ولم يكن اعتقادهم بالحياة الآخرة اعتقاداً مبهمًا بل كانوا يقولون انهم يعرفون ما يقع للانسان فيها . وذلك ظاهر من انهم كانوا يضعون في القبر مع كل ميت اشياء مخصوصة لا يعدلون عنها اعتقاداً منهم انهُ ينتفع بها . وكانت هذه الاشياء توضع دائمًا على نظام مخصوص في القبر ويُلقى الميت على جنبهِ الايسر وفي الغالب يكون رأسهُ الى الجنوب ووجههُ الى الغرب . ومحافظتهم على هذا النظام تدلّ على انهم كان لهم رسوم دينية ثابتة . وانتقل كثير من هذه الرسوم الى ديانة المصريين الذين عاشوا في عصر التاريخ ودوّن في كتاب الموتى